جهود علماء المشرق الإسلامي في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول
(ابن الفوَطي أنموذجاً)

د.أمال سليمان عبد الحميد الزوي

مقدمة

يقف الدارس للغة العربية في المشرق الإسلامي مشدوهاً أمام الكم هائل من النتاج الفكري في مختلف علوم المعرفة، ففي نهاية النصف الأول من القرن (٧هـ) برز الكثير من العلماء والمفكرين في مختلف العلوم، بذلوا جهوداً كبيرة في المحافظة على استمرار اللغة العربية في أثناء الغزو المغولي وبعده.

ومن بين العلماء الذين أسهموا في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول، المؤرخ ابن الفوطي، الذي حرص على أن تكون جل كتبه باللغة العربية، في الوقت الذي أصبحت فيه اللغة الفارسية هي اللغة الرسمية للإمبراطورية المغولية في تلك الفترة.

ومنْ هذا المنطلق، سنحاول في هذا البحث دراسةَ جهود علماء المشرق الإسلامي في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول، مع إيلاء عنايةٍ خاصة لدور المؤرخ ابنِ الفوطي في الحياة الثقافية في عهد المغول، الذي أسهم -بشكلٍ أو بآخر- في المحافظة على استمرارِ اللغةِ العربية خلال عهد المغول، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج التاريخي السردي التحليلي.

وفق ما تقدم، سَيُطْرَحُ موضوعُ جهود علماء المشرق الإسلامي في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول (ابن الفوطي أنموذجاً)، وهو يندرج تحت محور من محاور المؤتمر، وهو المحور المسمّى «اللغة العربية والاستعمار الأجنبي للدول العربية والإسلامية»، وذلك على ضوءِ المباحث الآتية:

الأول: اللغة العربية في المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي.

ثانياً: جهود علماء المشرق في المحافظة على اللغة العربية من الغزو المغولي.

ثالثاً: حياة المؤرخ ابن الفُوطيّ.

رابعاً: دور المؤرخ ابن الفوطي في المحافظة على اللغة العربية.

أولاً: اللغة العربية في المشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي

تعدُّ اللغة العربية من أكثر اللغات انتشاراً في العالم؛ فهي لغة القرآن الكريم، وقد أثر انتشار الإسلام، وفتح الدول، في ارتفاع مكانة اللغة العربية، فأصبحت لغة السياسة والعلم والأدب لقرون طويلة في الأراضي التي حكمها المسلمون، وأثرت العربية تأثيراً مباشراً أو غير مباشر في كثير من اللغات الأخرى في العالم الإسلامي، كالفارسية والتركية وغيرها من اللغات الأخرى(١).

وقد تطورت اللغة العربية ومصطلحاتها في المشرق الإسلامي، بفضل عملية الترجمة، فبرزت في العربية كلمات ومصطلحات جديدة لم تكن معهودة من قبل، أخذت عن الفارسية والتركية، وخلال العصر الذهبي بلغت اللغة العربية أقصى درجات الازدهار، فقد عبّر الأدباء والشعراء والعلماء، العرب والعجم، عن أفكارهم بهذه اللغة، فكتبت آلاف المجلدات والمؤلفات والمخطوطات في مختلف المواضيع بلسان العرب، وكان من أهمية اللغة العربية في المجال الثقافي أن اقتبست بعض اللغات

الأوربّية كلمات منها في أثناء الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي(٢).

وحظيت اللغة العربية باهتمام وعناية من أهل المشرق الإسلامي؛ فقد كانت الجوامع والمدارس ومجالس الخلفاء والسلاطين قِبلة عدد كبير من الأئمة والعلماء. بالإضافة إلى ذلك ازدهرت اللغة العربية على إثر بناء المدارس؛ مثل المدرسة النظامية(٣)، والمستنصرية(٤)، ومن العلوم التي لقيت رواجاً في تلك الفترة علم النحو والصرف، والأدب والشعر والنثر والخطابة (٥).

ثانياً: جهود علماء المشرق في المحافظة على اللغة العربية من الغزو المغولي

١- المغول

تعرض المشرق الإسلامي خلال القرن السابع الهجري لهجمة مغولية كان يقودها جنكيزخان(٦)، الذي تمكن سنة (٥٩٩هـ/١٢٠٢م) من وضع أساس دولته، وذلك بتوحيد القبائل المغولية تحت زعامته، ولكن استقلال جنكيزخان لم يتم رسمياً إلا بعد أن حدد علاقته وموقفه من الإمبراطورية الصينية، وتمثل ذلك في إعلان العداء للإمبراطور سنة (٦٠٨هـ/ ١٢١١م)، إذ قاد الجيوش لغزو بلاده، وتمكن من الانتصار عليه، ثم وجه اهتمامه بعد ذلك ناحية الغرب وشطر المشرق الإسلامي.

بدأت حملات المغول سنة (٦١٧هـ/ ١٢٢٠م) نحو المشرق الإسلامي، بعد أن جاورت أملاكهم الدولة الخوارزمية(٧)، وكانت المناوشات الحربية بين المغول وقوات السلطان محمد خوارزمشاه مقدمة لاجتياحهم للدولة الخوارزمية، والقضاء عليها (٦٢٨هـ/ ١٥ أغسطس ١٢٣١م)، ثم توجه المغول بقيادة هولاكو خان(٨) نحو العراق، فاستولوا في طريقهم على قلاع الإسماعيلية سنة (٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م)، وفي سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، وتمكن هولاكو من دخول بغداد والسيطرة على عاصمة الخلافة العباسية، بعد أن قتل الخليفة العباسي المستعصم وأبناءه، ومنها انطلقت جيوش المغول نحو الشام، ويظهر أن أعمال العنف والقتل والتدمير التي ارتكبها المغول كان لها أثر في قلوب الأمراء المسلمين، مما جعلهم يبادرون لتقديم فروض الطاعة لهولاكو، فكان هذا عاملاً مشجعاً لهولاكو على المسير إلى تلك البلاد، وإن كان هناك عامل آخر شجع على فتح الشام؛ ذلك هو التحالف الذي تمّ بين الحكام المسيحيين في غرب آسيا.

أرسل هولاكو إلى السلطان المملوكي قطز(٩) رسالة يدعوه فيها إلى الاستسلام، فما كان من قطز إلا أن قتل رسل هولاكو في رمضان سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، والبدء على الفور بالاستعداد للحرب، التي انتهت بهزيمة المغول في معركة عين جالوت(١٠) سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) على يد المماليك.

مما تجدر ملاحظته أنه على الرغم من الغزو المغولي فإن اللغة العربية استمرت في المشرق الإسلامي، بل أخذت تجد موطئ قدم لها، كلغة دين بشكل أساسي، في الإمبراطورية المغولية، خاصة بعد اعتناق عدد كبير من خانات المغول للدين الإسلامي.

٢- جهود العلماء في المحافظة على اللغة العربية

لقد تبوأ العلماء في المشرق الإسلامي في عهد المغول مقاماً رفيعاً، فكانوا يشاركونهم في إدارة الإمبراطورية المغولية، ولا يقطعون برأي -في الغالب- إلا بعد استشارتهم؛ فمثلاً، الوزير والمؤرخ رشيد الدين الهمذاني كان حاكماً لهذه المنطقة من قبل المغول مدة طويلة، وكان مسلماً، ويحرص على رعاية مصالح المسلمين، وتطبيق نصوص الدين الإسلامي، وكان لذلك الأثرُ الكبير في المحافظة على اللغة العربية لغة القرآن الكريم.

ومع أنه كانت هناك منافسة قوية من قبل المسيحية لكسب خانات المغول إلى جانبهم؛ لتأييدهم في مشروعهم الصليبي ضد المسلمين، نجد أن عدداً كبيراً من علماء المشرق واجهوا هذا التحدي؛ بالرد على هذه الحرب رداً علمياً، مستفيدين من الحرية التامة التي منحها خانات المغول للطوائف الدينية في إقامة المناظرات والدروس الدينية فيما بينها، أو عن طريق تأليف وترجمة كتب التفسير والفقه والفتاوى وغيرها، وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى تقوية الجاليات الإسلامية، ومن ثم إلى ازدياد انتشار الإسلام داخل الإمبراطورية المغولية، مما ساعد على تقوية الدين الإسلامي وتحصين الهوية العربية(١١).

لم يكن العلماء الذين اجتهدوا في

المحافظة على اللغة العربية، كلهم على درجة واحدة في العلم، ولا في مستوى متقارب من الثقافة، فثمة تفاوت بينهم -كغيرهم من الناس- في مداركهم العقلية، وفي مقادير ما تهيأ لهم من علوم ومعارف، ولكن عدداً منهم كانوا قد وصلوا إلى مركز الصدارة العلمية في العلوم والمعارف التي تخصصوا فيها.

وقد تنوعت الطرائق التي انتهجها العلماء للمحافظة على اللغة العربية في عهد المغول، فكان أهمها ما يلي:

١- الخطابة: تولى عدد كبير من علماء المشرق مهمة الخطابة في الجوامع، بالإضافة إلى مهمة القضاء والنقابة وتعيين الأئمة والخطباء في المساجد في بلدانهم، وتطبيق أحكام الشريعة في المعاملات، كما كان متبعاً في عهد الخلافة العباسية، فقد تولى عطاء ملك الجويني(١٢)، مهمة الإشراف على الوظائف الدينية، وكان يساعده في ذلك زكريا الدين القزويني(١٣)، الذي كان أشبه بالمشرف عليه والمراقب، بالإضافة إلى عدد من القضاة والمدرسين، وذلك بهدف تقوية الإسلام ودعوة الناس إليه، ونتج عن ذلك انتشار اللغة العربية بين خانات المغول، خاصة بعد اعتناقهم الدين الإسلامي.

٢- الدبلوماسية: تطلّب النشاط الدبلوماسي بين الإمبراطورية المغولية ودول المشرق الإسلامي وجود مترجمين يتقنون اللغة العربية، ومن ثَم فقد كان للعلماء دور كبير في كتابة وترجمة العديد من رسائل خانات مغول إلى سلطان المماليك قلاوون، وقد كان الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الرافعي، وقطب الدين الشيرازي قاضي مدينة سيواس، من ضمن البعثة التي أرسلها خان أحمد تكودار إلى السلطان قلاوون(١٤).

٣- المدارس: أسهم عدد كبير من العلماء، الذين تولوا إدارة المدارس في المشرق الإسلامي، في التشجيع على اللغة العربية؛ وذلك عن طريق الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في هذه المدارس، فقد أشرف العلامة سيف الدين الباخرزي على مدرسة بخارى(١٥)، وبلغ عدد طلاب العلم فيها ألف طالب مسلم، وقد دُرست فيها مختلف العلوم الإسلامية، وكانت اللغة العربية من بين العلوم التي تدرس في هذه المدرسة.

٤- المكتبات: شهد عصر المغول نشاطاً كبيراً في جمع الكتب، وإنشاء المكتبات والعناية بها من قبل علماء المشرق، فقد احتوت مكتبة مرصد مراغة الذي شيده المؤرخ نصير الدين الطوسي في عهد هولاكو، على عدد كبير من الكتب القيّمة باللغة العربية، التي نسخت بخطوط مؤلفيها(١٦).

٥- حركة الترجمة والتأليف: ظلت اللغة العربية لغةً للعلوم والآداب، فألّف العلماء وترجموا من اللغة العربية وإليها، فقد ألف المؤرخ نصير الدين الطوسي ما لا يقل عن ستة وخمسين مؤلفاً، أغلبها مكتوب باللغة العربية، وكان قد ترجم العديد من الكتب الدينية والفلسفية والرياضية، من العربية إلى الفارسية والعكس(١٧).

ثالثاً: حياة المؤرخ ابن الفُوَطيّ

١- مولده ونشأته

ولد المؤرّخ الأخباري المحدِّث كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد بن محمد ابن الفُوَطيّ البغداديّ، يوم ١٧محرم (٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م)، في محلة الخاتونية شرقيّ بغداد، ويعرف ابن الفُوَطيّ أيضاً بابن الصابوني؛ نسبة إلى جد أبيه لأمه ابن الصابوني، ويعرف أيضاً بالشيباني؛ نسبة إلى الأمير معن بن زائدة الشيباني، وكان والده تاج الدين أحمد بن محمّد من وجهاء المجالس، والمختلفين الزهّاد والصالحين والمحدّثين والأدباء والمتصوّفة، وكان أخوال والده من بيّاعي الفُوَط فعُرف بابن الفُوَطيّ، وكانت والدته من بيت معروف بالرئاسة في الدولة العبّاسيّة(١٨).

وقد نُشِّئَ ابن الفُوَطيّ تنشئة أبناء الطبقة الوسطى من المجتمع الإسلامي العراقيّ في القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي، وكان والده قد هيّأه لدراسة الأدب وإتقان الحديث النبويّ وعلومه، ولذلك كان يحضر مع والده مجالس الوعّاظ والصوفيّة والأدباء الرّواة، واتّصل بأبناء الأمراء والأدباء، ودرس مقامات الحريريّ(١٩)، وسمع جامع الترمذي

في الحديث(٢٠)، ومن الشيوخ المدرسين الذين حضر مجالسهم، كمال الدين أبو الحسن البغدادي، الفقيه الحنبلي، مدرّس الحنابلة في المدرسة المستنصرية، ومن الأدباء الرّواة الذين حضر مجالسهم مع والده كمال الدين أبو الحسن الحمويّ البغدادي، والد المؤرخ ياقوت الحمويّ.

وقد ظهر ميل ابن الفُوَطيّ مبكراً إلى الأدب والتاريخ وعلم النّسب، فضلاً عن علم الحديث، وساعده ولعه بعلم النّسب على تكوّن ملكته التاريخيّة؛ فلا أنساب بلا تاريخ، ولذلك أخذ في شبابه يقيد مواليد الشيوخ ووفياتهم ويثبت أهم أعمالهم، ومما تجدر ملاحظته أن الدراسة التي تلقاها ابن الفُوَطيّ قبل أسْره على يد المغول، ونقله إلى خارج بغداد، أي قبل سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م)، كانت قليلة الفائدة في إنقاذ ابن الفُوَطيّ من الأمّيّة، وفي تعلمه الكتابة والقراءة، وهما بابا التثقّف والتعلّم(٢١).

٢- المؤرخ ابن الفُوَطيّ والمغول

دخل المغول بقيادة هولاكو بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) عاصمة الخلافة العباسية، بعد أن قتلوا ونكلوا وأسروا عدداً من سكان المدينة، فكان ابن الفُوَطيّ وأخوه عبد الوهاب في جملة أسرى المغول من بغداد، وكان عمره أربع عشرة سنة، ومما تجدر ملاحظته أن ابن الفُوَطيّ وأخاه قد سقطا بأيد رحيمة أشفقت على طفولتهما، في حين قتل بعض الأطفال، ويظهر لي أن مصير الأسرى كان بيد آسرهم من المغول وليس الدولة؛ إذ احتفظ البعض بمن وقع في يده، وعاد به إلى الشرق لاستخدامه، أو باعه لآخرين وقبل الفداء فيه. وقد تمكن ابن الفُوطيّ، بمساعدة الشيخ قطب الدين الأزهري، الذي رأى فيه الفطنة والذكاء وسعة الاطلاع، من التوجه إلى زاوية الشيخ شمس الدين حبش الفخّار في قرية كليبر، حيث أقام فترة من الزمن فيها، ومنها توجه ابن الفُوطيّ إلى أُستاذه ومعلّمه نصير الدين الطوسيّ وزير هولاكو سنة (٦٦٠هـ/١٢٦١م)، وقد أصبح من ضمن طلّابه خاصة لما رآه عليه من أمارات الأدب، ولما فيه من الرغبة في العلم والفلسفة، وجمال الخط، ولذلك وكل لابن الفُوَطيّ أمر خزانة كتب المرصد بمراغة(٢٢).

رابعاً: دور المؤرخ ابن الفُوطيّ في المحافظة على اللغة العربية

١- مرصد مراغة

يعد مرصد مدينة مراغة عاصمة الدولة الإيلخانية(٢٣)، من المراصد الفلكية الضخمة في ذلك الوقت، ومن أهم إنجازات هولاكو العلمية، فقد شرع المؤرخ والوزير نصير الدين الطوسيّ في بناء المرصد في جمادى الأولى سنة (٦٥٧هـ/١٢٥٩م)، وجلب له أكبر العلماء في علم الفلك، المشهود لهم بالقدرة العلمية، ومن العلماء الذين قاموا بمساعدته أبو الحسن علي بن محمد الكاتبي القزويني، والسيد ركن الدين بن محمد بن شرفناه، ومؤرخنا كمال الدين ابن الفُوَطيّ، الذي هام بدار المرصد، وشغف بها حباً، وكان إذا ورد ذكرها في كتاب له يقول: المرصد المحروس(٢٤).

تولى ابن الفُوَطيّ منصب خازن خزانة مكتبة المرصد بمراغة، وقد ساعده في ذلك حسن خطّه؛ لأنّ من لوازم الخزان في خزائن الكتب ودورها أن يكون حسن الخطّ، وقد أتقن خطّ النستعليق(٢٥)، الذي يعد من الخطوط العربية التي شاع استخدمها عند الخطاطين في شرق العالم الإسلامي منذ القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، واستعمل في رسم المصاحف والمكاتبات الرسمية والشخصية، وامتاز هذا الخط بجماله النابع من توازن حروفه وانسياب امتداداته والوضوح في كتابته. والنستعليق في اللغة مصطلح منحوت، يتكون من كلمتين هما (نسخ وتعليق) (٢٦)، وتدل هاتان الكلمتان على نوعين من الخط هما: النسخ والتعليق، اللذان انتشرا وعرفا في الفترة السابقة لظهور خط النستعليق في المشرق الإسلامي. ويعد خط النستعليق الذي تطور من خط التعليق القديم، من الخطوط الأكثر نضوجاً ضمن مجموعة الخطوط العربية اللينة؛ ذلك لأنه يمكن الكتابة به بأحجام مختلفة، تتراوح بين الدقيق المستخدم في المنمنمات، إلى الكبير المعروف باسم الجلي، المنفذ على العمائر بنجاح باهر. ومما يمكن ملاحظته أيضاً على خط النستعليق أنه يخالف الخطوط اللينة في بعض المميزات الفنية؛ أهمها أن حروفه العمودية تميل إلى اليمين من أعلى، في حين تميل الحروف

العمودية في بقية الخطوط اللينة نحو اليسار. وقد استخدم خط النستعليق غالباً في الكتابات الرسمية والأدبية، وقد كتبت به الأشعار والدواوين الإيرانية والعثمانية والعربية، وظهر له في ذلك مدارس متعددة؛ أهمها وأوسعها انتشاراً المدرسة الإيرانية، ثم المدرسة العثمانية، وتليها المدرسة الشامية(٢٧).

وقد طلب نصير الدين الطوسيّ من ابن الفُوَطيّ كتابة الزيخ الإيلخاني وغيره من كتب الفلك بخط النستعليق، وظهر جمال خطّ ابن الفُوَطيّ في كتبه ومنسوخاته؛ ومنها كتاب تلخيص معجم الألقاب، وكتاب الأحكام، والكامل في التاريخ لابن الأثير، وكتاب زبدة الطبّ(٢٨) للخوارزمشاهي، وهنا يذكر الذهبي: ((كتب الكثير بخطّه المليح.... وله ذكاء مفرط، وخطّ منسوب رشيق في غاية الحسن)) (٢٩)، في حين تحدث ابن حجر العسقلاني عن خطّ ابن الفُوَطيّ فقال: ((كتب بخطّه المليح كثيراً جدّاً... وكان له نظم حسن، وخطّ بديع جدّاً، ملكت بخطّه (خريدة القصر) للعماد الكاتب في أربع مجلّدات، في قطع الكبير، وقدمتها لصاحب اليمن، فأثابني عليها ثواباً جزيلاً جداً))(٣٠).

احتوت مكتبة مرصد مراغة على مصنفات نادرة وقيّمة، كانت إما بخطوط مؤلفيها أو بخطوط النساخ والخطاطين والورّاقين، وقد طالع ابن الفُوَطيّ كثيراً من كتبها على اختلاف أنواعها وموضوعاتها، وجمع منها مجاميع، واقتبس وصنف وألّف بمراغة، وكان مما ألّف كتاب (تذكرة الرّصد)، كما ساعد ابن الفُوَطيّ ابن الطوسي في الزيخ الإيلخاني على مقابلة الشهور العربية بالشهور المغولية، وأثبت ذلك في جدول قائم بذاته ابتداء من سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م)، وهي سنة جلوس جنكيزخان على عرش الإمبراطورية المغولية، حتى مئة سنة بعد ذلك. كما التحق ابن الفُوَطيّ بالتدريس في المعهد العلمي الملحق بالمرصد الفلكي بمراغة، الذي كان يعج بالطلاب الوافدين من كل مكان(٣١).

٢- مكتبة المستنصرية

عاد مؤرخنا ابن الفُوَطيّ إلى بغداد (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، وكان ذلك في ولاية علاء الدين الجويني على العراق. التي عاد إليها الازدهار والنشاط العلمي، فأصبحت أمور مدارسها ومساجدها وزواياها وأوقافها أحسن حالاً بكثير مما كانت عليه على عهد الخليفة المعتصم، وقد ذكر ابن الفُوَطيّ أنّ علاء الدين الجويني هو الذي أعاده إلى بغداد؛ حين ((فوض إلي كتابة التاريخ والحوادث، وكتب لي الإجازة بجميع مصنفاته))(٣٢).

تولى كمال الدين ابن الفُوَطيّ سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) الإشراف على دار كتب المدرسة المستنصرية وخزانة كتبها، ومما تجدر ملاحظته أن دار كتب المدرسة المستنصرية لم تكن مفصولة عنها، بل جزء منها. وكانت خزانة الكتب حافلة بألوف المجلّدات من الكتب، باختلاف أنواعها، وقد اعترف ابن الفُوَطيّ بأنّ كتب المستنصرية لم يوجد مثلها في العالم، مع علمه بخزانة كتب المرصد بمراغة التي سبق ذكرها، بأنّها كانت أجلّ وأنفس من خزانة كتب الرصد على وفارة كتبها، ويذكر المؤرخ الذهبي أن ابن الفُوَطيّ ((ولي خانة كتب المستنصرية، فبقي عليها والياً إلى أن مات))(٣٣).

وفي سنة (٧٠٤هـ/١٣٠٤م) سافر ابن الفُوَطيّ إلى السلطان المغولي محمدّ أولجايتو(٣٤) بدعوة من أصيل الدين الحسن بن نصير الدين الطوسيّ، وترغيب من الوزير رشيد الدين الهمذاني، وذلك للنسخ والمقابلة، وقد بقي هناك ثلاث سنوات، وذلك لأنّ خطّه كان -كما ذكرنا سابقاً- جميلاً، ونسخه كان سريعاً، وكان ينسخ ويقابل، ويعين المؤرخ رشيد الدين الهمذاني على تأليف كتاب جامع التواريخ، إذ كلّف ابن الفُوَطيّ بالترجمة من الفارسية إلى العربية، وبعد وفاة ابن أستاذه أصيل الدين الطوسيّ، دخل ابن الفُوَطيّ (٧١٥هـ/١٣١٦م) في خدمة الوزير والمؤرخ رشيد الدين الهمذاني(٣٥).

٣- مؤلفات ابن الفُوَطيّ

ساعد عمل ابن الفُوَطيّ خازناً على خزانة الكتب في مرصد مراغة، والتي احتوت على أربعمئة ألف مجلّد، ثم مشرفاً على مكتبة مدرسة المستنصرية فيما بعد، في تكوين قاعدة جيدة استفاد منها في وضع مؤلفاته.

أبدى ابن الفُوَطيّ اهتمامه بعلم التاريخ؛ لأنّ الصوفي يميل إلى التاريخ لكثرة ما فيه من المواعظ والعِبرَ، كذلك كان لنسبه العربي إلى معن الشيباني

دور كبير في اهتمامه بعلم الأنساب من فروع التاريخ، وخاصة تلمذته على نسّابة مشهور منهم هو جمال الدين أحمد بن مهنا العلويّ، ولكن ابن الفُوَطيّ لم يقتصر على عملية الجمع والاقتباس من الكتب فقط؛ بل دفعه شغفه لسماع الأحاديث إلى السعي وراء الشيوخ الرّواة، فكان يقصد من بقي منهم على قيد الحياة من العلماء والأدباء والشعراء، ينقل عنهم بالمشافهة أو الإجازة، حتى ذكر أنّ مشيخته احتوت على خمسمئة شيخ بين مسمع له ومجيز له الرواية عنه، وهنا يمكن الوقوف قليلاً عند هذه النقطة، فنقول: إنّ هذه المشيخة يبدو أنها اقتصرت على رجال الحديث، لأن من لقيهم ابن الفُوَطيّ وكتب عنهم يعدون بالآلاف، خاصة إذا علمنا أن هناك من العلماء من لقيهم أكثر من مرة(٣٦).

وقد ترك ابن الفُوَطيّ وراءه مكتبة فخمة من المؤلفات في علوم الحديث والأدب والشعر، فضلاً عن التاريخ والتراجم والأنساب، ونذكر منها:

١- مجمع الآداب على معجم الأسماء في معجم الألقاب: يعد من أكبر الكتب في الألقاب في التاريخ الإسلامي.
٢- درر الأصداف في غرر الأوصاف: هو كتاب كبير يقع في عشرين مجلّداً.
٣- نظم الدّرر الناصعة في شعراء أهل المئة السابعة(٣٧).
٤- التاريخ على الحوادث: وينتهي هذا الكتاب بدخول المغول بغداد سنة (٦٥٦هـ/١٢٨٥م).
٥- كتاب النسب المشجّر.
٦- تذكرة من قصد الرصد: وقد ورد ذكره في تلخيص مجمع الآداب، ويقصد بالرصد مرصد مراغة.
٧- بدائع التُّحف في ذكر من نُسب من العلماء إلى الصنائع والحرف.
٨- مشيخته: وعرفت باسم دفتر الإجازات.
٩- مجموع الأدب الفارسيّ.
١٠- الدرّ النظيم فيمن تسمى بعبد الكريم(٣٨).
١١- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة الواقعة في المئة السابعة.
١٢- تلخيص مجمع الآداب المرتب على معجم الأسماء في معجم الألقاب، يعد من الكتب القيمة التي احتوت على معلومات وفيرة وقيمة عن الأدب والشعر والتاريخ والنثر، فضلاً عن التراجم التي كتبها لأعيان عصره لا توجد في كتاب غيره، خاصة إذا علمنا قلة المؤرخين الذين أرخوا باللّغة العربية في منطقة المشرق الإسلامي، ولا سيمّا العراق والجزيرة، وذلك بسبب سيطرة اللّغة الفارسية في عهد المغول. فهو إذن من الكتب العربية المهّمة، وهو جزء من كتاب مجمع الآداب(٣٩).

استمرّ ابن الفُوَطيّ يهتم بعلم الحديث والأدب والشعر، فضلاً عن التاريخ والتراجم وعلم الأنساب وباقي العلوم الأخرى حتى توفّي في بغداد من سنة (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) مفلوجاً، عن إحدى وثمانين سنة، وكانت وفاته في آخر نهار الاثنين غرّة المحرّم، وكانت مدّة مرضة أكثر من سبعة أشهر، دفن في الشونيزية مقبرة الصوفية، إلى شرقي بغداد(٤٠).

يستخلص مما تقدم أن جهود علماء المشرق الإسلامي في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول، كان لها أثرها في الحياة الثقافية والفكرية بشكل عام، واللغة العربية بشكل خاص.

وكان لهجرة عدد كبير من العلماء المسلمين، وزيادة نفوذهم، خاصة في العاصمة الإمبراطورية المغولية، دور كبير في انتشار الدين الإسلامي، واللغة العربية فيما بعد. كذلك كان للمؤسسات العلمية، كالمدارس والمكتبات، التي حظيت باهتمام العلماء، دور كبير في المحافظة على اللغة العربية.

ويعد المؤرخ ابن الفُوَطيّ نموذجاً لجهود علماء المشرق في المحافظة على اللغة العربية، فالجهود التي بذلها مؤرخنا في التفنن بخطّ النستعليق، كان لها دور كبير في المحافظة على اللغة العربية في عهد المغول.

كذلك ساعد عمل ابن الفُوَطيّ خازناً على خزانة الكتب في مرصد مراغة، ثم مشرفاً على مكتبة مدرسة المستنصرية، في اطلاعه على عدد كبير من المؤلفات ونسخ عدد كبير منها، ويعد ذلك من الجهود التي بذلها المؤرخ ابن الفُوَطيّ للمحافظة على اللغة العربية، خاصة إذا علمنا قلة المؤرخين الذين أرخوا باللّغة العربية في منطقة المشرق الإسلامي، ولا سيمّا العراق والجزيرة، في الوقت الذي سيطرت فيه اللّغة الفارسية في عهد المغول.

هوامش البحث

١- مصطفى صادق الرافعي، «تاريخ آداب اللغة العربية»، ج١، (مكتبة الإيمان، القاهرة، ١٩٩٧م)، ص١٨٦.

٢- جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، ج٨، (جامعة بغداد، بغداد، ١٩٩٣م)، ص٦٦٩.

٣- المدرسة النظامية: من أقدم مدارس بغداد وأشهرها، وقد بناها الوزير السلجوقي نظام الملك سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م. أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم»، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٩، (دار الكتاب، بيروت، ١٩٩٢م)، ص٩.

٤- المدرسة المستنصرية: أنشئت في أواخر الدولة العباسية، وقد أمر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسي، وافتتحت للتدريس في سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م. المصدر السابق، ج٩، ص٦٦.

٥- أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء»، ج٥، (دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧م)، ص٤٦٤.

٦- جنكيزخان: كان أحد أتباع إمبراطور أسرة كن التي تحكم شمال الصين، ويدفع له الضريبة. محمد أسد صفا، «جنكيزخان»، (دار النفائس، بيروت، ١٩٩٨م)، ص١٨٦.

٧- الخوارزميون: بدأت قوة الدولة الخوارزمية بالظهور في عهد السلطان أتسز، انظر: نافع توفيق العبود، «الدولة الخوارزمية»، ط١، (جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٨م)، ص١٢.

٨- هولاكو: هو الابن الأصغر لتولوي خان بن جنكيزخان. فؤاد عبد المعطي الصياد، «المغول في التاريخ»، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠م)، ص٢٣٦.

٩- السلطان قطز: تولى السلطان حكم الدولة المملوكية (٦٥٧-٦٥٨هـ/ ١٢٥٩-١٢٦٠م) بعد أن عزل السلطان المنصور نور الدين أيبك. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، «السلوك لمعرفة دول الملوك»، ج١، (مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٢م)، ص٤٣٠.

١٠- معركة عين جالوت: هي من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، انتصر فيها المماليك على المغول. انظر: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، «نهاية الأرب في فنون الأدب»، تحقيق السيد الباز العريني، ج٢٩، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م)، ص٤٧٢-٤٧٥.

١١- الصياد، «المغول»، ص٣٦٢- ٣٨١.

١٢- عطاء ملك الجويني: ينتمي إلى أسرة الجويني، التي تولت ولاية بعض المناطق في عهد المغول، وقد وثق خانات المغول بأفراد هذه الأسرة، وفوضوا إليهم أمور دولتهم. انظر: فؤاد عبد المعطي الصياد، «مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني»، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م)، ص١١٦.

١٣- زكريا بن محمد بن محمود القزويني: تولى منصب القضاء في الحلة وواسط في عهد الخليفة المستعصم. إدوارد جرانفيل بروان، «تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي»، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، (مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٤م)، ص٦١٤.

١٤- محمد صالح القزاز، «الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية»، (مطبعة القضاء، النجف، ١٩٧٠م)، ص٦٠.

١٥- مدرسة بخارى: أمرت ببنائها سيورقوقيتيتي زوجة تولوي بن جنكيزخان. عطا ملك الجويني، «تاريخ جهانكشاي»، ترجمة محمد ألتونجي، م٢، ج٢، (دمشق، ١٩٨٥م)، ص١٨٨.

١٦- المصدر السابق، ج٣، ص١٤٧.

١٧- بروان، تاريخ الأدب في إيران، ص٦١٦.

١٨- ابن كثير ، «المختصر»، ج٣، ص١٤٧.

١٩- مقامات الحريري: لمحمد القاسم الحريري، والمقامة هي حكاية تقال في مقام معين، وتشتمل على كثير من درر اللغة وفرائد الأدب. محمد القاسم الحريري البصري، «مقامات الحريري»، (مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٢م)، ص٣.

٢٠- محمد بن عيسى الترمذي، «جامع الترمذي»، تحقيق شعيب الأرنؤوط

وعبد اللطيف حرز الله، ج١، (دار الرسالة العالمية، بيروت، بدون تاريخ)، ص ٣.

٢١- كمال الدين أبو الفضل ابن الفوطي، «مجمع الآداب في معجم الألقاب»، تحقيق محمد الكاظم، م١، (مؤسسة الطباعة والنشر وزرة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، ١٤١٦هـ)، ص ١٣.

٢٢- مرصد مراغة: شرع ابن الطوسي في بناء مرصد مراغة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، بأمر من هولاكو خان. عباس العزاوي، «الخواجة نصير الدين الطوسي»، مجلة المجمع العلمي العراقي، م٥، (مطبعة المجمع العراقي، بغداد، ١٩٥٨م)، ص١٤.

٢٣- الدولة الإيلخانية: نسبة إلى القب (إل خان) الذي اتخذه هولاكو خان لنفسه، والذي أصبح علماً مميزاً لحكم أسرته التي توارثت الحكم من بعده. انظر: المقريزي، «السلوك»، ج١، ص٥٤١.

٢٤- محمد رضا الشيبي، «مؤرخ العراق ابن الفوطي»، (المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٨م)، ص١٥، ص١٤٨.

٢٥- ابن الفوطي، «مجمع الآداب»، ج١، ص٣٥.

٢٦- نصار محمد منصور، وآخرون، «خط النستعليق»، المجلة الأردنية للفنون، م٦، ع١، (عمان، ٢٠١٣م)، ص٢٦٠.

٢٧- المرجع السابق، ص٢٦٧-٢٦٨.

٢٨- زبدة الطبّ: مؤلفها إسماعيل بن محمد الحسين الجرجاني، وكان قد كلفة سلطان خوارزم قطب الدين محمد (١٠٩٧-١١٢٧م) بتأليف موسوعة طبية ضخمة عرفت كنز خوارزم شاه. ابن الفوطي، «مجمع الآداب»، ج١، ص٢٢.

٢٩- محمد بن أحمد شمس الدين الذهبي، «تذكرة الحفاظ»، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، ج٤، (دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٤هـ)، ص١٤٩٣.

٣٠- شهاب الدين علي بن حجر، «الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة»، تحقيق سالم الكنوي، ج٢، (حيدرأباد، ١٩٨٩م)، ص١٧٧.

٣١- الذهبي، «تذكرة الحفاظ»، ج٤، ص١٤٩٣.

٣٢- محمد بن شاكر الكتبي، «فوات الوفيات»، ج١، (دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣م)، ص٢٧٢-٢٧٣.

٣٣- الذهبي، «تذكرة الحفاظ»، ج٤، ص١٤٩٤.

٣٤- أولجايتو: حفيد هولاكو، وهو من سلاطين المغول المسلمين الذين تولوا عرش الدولة الإيلخانية. الصياد، «مؤرخ المغول»، ص١٤١.

٣٥- محمد رضا الشيبي، «مؤرخ العراق ابن الفوطي»، ص١٥.

٣٦- الذهبي، «تذكرة الحفاظ»، ج٤، ص١٤٩٣.

٣٧- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات»، تحقيق إحسان عباس، ج٢، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢م)، ص٩١٥.

٣٨- الذهبي، «تذكرة الحفاظ»، ج٤، ص١٤٩٤.

٣٩- ابن حجر، «الدرر الكامنة»، ج٢، ٤٧٤.

٤٠- ابن الفوطي، «مجمع الآداب»، ج١، ص٣٨.